حقوق الإنسان في اليمن.. وآفاق التحدي

بقلم : نزار خضير العبادي

تجلت حقوق الإنسان حديثا بجملة من المواثيق والإعلانات التي تراكمت وتشكلت تدريجيا عبر مسيرة التاريخ الإنساني، بدءاً من الحضارات والثقافات القديمة، وصولا إلى الحضارة الحديثة، وإنجازاتها، إلاّ أن مبادئ حقوق الإنسان، وتكونها التاريخي يتجاوز المواثيق، والدساتير، وتركيبة الدول والمجتمعات الحديثة – بوصفها ارتبطت منذ القدم بالحق الطبيعي للإنسان الذي يضمن له العيش بكرامة، وحرية، ومساواة مع الآخرين، واستندت إلى إرث فلسفي، ومعرفي كبير، وهذا ما أكسبها بعدها العالمي الواسع.

ومع صعود الرأسمالية في الغرب وتشكل الدولة الحديثة التي وجدت ضالتها في الديمقراطية الليبرالية تعاظم شأن حقوق الإنسان واقترنت بولادة المفهوم الحديث للمواطن داخل الدولة التعاقدية التي صانت دساتيرها تلك الحقوق ، وتأسست عليها مؤسسات المجتمع المدني.

لكن ذلك لم يأخذ طابعا شموليا، فحدثت التجاوزات والانتهاكات في حروب الإبادة، والتصفيات والمجاعات، وقهر الشعوب، وفي الدول ذات الأنظمة النازية والديكتاتورية، وتبدد حلم الفلسفة بالدول الديمقراطية الشمولية، ذلك لأن الشيء الوحيد في ظل الرأسمالية الذي يكتسب طابعا شموليا هو السوق، وتبدو معايير حقوق الإنسان مجرد معايير اصطلاحية تتعايش مع معايير أخرى في السوق، فيحدث الخليط ، أو التجاور المشوب.

لا شك أن التلاقي والتفاعل مع الغرب شكل بداية الوعي العربي المعاصر بمفهوم حقوق الإنسان ، غير أن المسار التاريخي لحقوق الإنسان في البلاد العربية سار بغير الوجهة التي تقوم عليها الفلسفة الأصلية، وبغير ما نادى به مفكرو عصر النهضة العربية آنذاك، فالدولة القطرية (الحديثة) اعتبرت حقوق الإنسان ثانوية أمام غاياتها العليا المطروحة في شعارات التقدم والاشتراكية، والتنمية، وغيرها.. فمارست سياسات داخلية تنتهك مجمل حقوق الإفراد المدنية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية..

ومع أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨م حقق الترابط ما بين الحقوق المدنية والسياسية، وبين الحقوق الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، لكن ذلك لم يمنع الانتهاكات الكثيرة لحقوق الإنسان في مختلف أنحاء المعمورة بفعل أسباب مثل الحروب والنزاعات، وغيرها.

ومع ذلك فإنه بتطور الزمن أخذت حقوق الإنسان في العالم تكتسب طابعا إنسانيا أكثر عمومية، وشمولية، فقد أضحى حق العيش بسلام، والدفاع عن البيئة، والتضامن ، والإغاثة عند وقوع الكوارث بمثابة حقوق ملازمة للحق في الحياة ، وحرية التعبير والرأي.

وإذا ما انطلقنا بتلك الأفكار وأسقطناها على واقع الدولة اليمنية(كنموذج) ، نجد أن اليمن رغم انفتاحها المبكر على خيارات الديمقراطية والحريات العامة، لم تبدأ بتوجيه تجربتها صوب رعاية حقوق الإنسان _ مؤسسيا – إلاّ منذ نهاية عقد التسعينيات ، ضمن تشكيلة «هيئة» لم تحظ فيها بأكثر من كينونة هلامية ، لا تتجاوز حدود تخفيف حدة الانتقادات التي كانت توجه لليمن من قبل هيئات خارجية دولية، لا ترى فيما كان معمولا به على المحور الديمقراطي التعددي صيغة مرضية، أو كافية.. رغم أن اليمن آنذاك كانت تُعد الأفضل على نطاق إقليمها الجغرافي الذي وقف حذرا من تفشي عدوى الديمقراطية التعددية، وعبور أفكارها تحصيناته التقليدية، المتوغلة عميقا في تاريخ الدولة ، ومؤسساتها.

ومع إن اليمن تقدمت كثيرا في استيعابها لمقتضيات التوجه إزاء تبنٍ جاد لسياسة واضحة، وعملية لمفاهيم حقوق الإنسان ، وأخذت تترجم ذلك واقعيا من خلال برامج ميدانية باشرتها وزارة السيدة أمة العليم السوسوة، لكن _على ما يبدو– أن الطموحات اللامحدودة للسوسوة، والصلاحيات الواسعة الممنوحة لها من قبل رئيس الجمهورية (بشكل استثنائي) تصطدم بالكثير من التحديات التي تحول دون ملامسة تفاعل اجتماعي سريع يتناسب وحجم الجهد الرسمي للوزارة ، أو الضرورات الملحة المتوقفة على مخرجات ما يتحقق على هذا الصعيد..

وربما كان الوقوف على أبرز تلك التحديات يرسم رؤىً واضحة لمعالم ماينبغي أن يكون عليه واقع حال عمل المرحلة القادمة ، وهو ما سنحاول إيجازه من خلال الآتي :-

● ضعف الوعي الاجتماعي العام بمفاهيم حقوق الإنسان، والشروحات المرتبطة بهذه العبارة، وفي مقدمتها الوظيفة الأساسية، والحقيقية التي يمكن أن تؤديها وزارة حقوق الإنسان.. وهو قصور ليس محصورا على الفرد وحده ، بل يمتد إلى كثير من المؤسسات الحكومية، أو المدنية.. مما يترتب على ذلك بطء التفاعل، والتجاوب مع الخطط المرسومة – وربما وأد بعضها أحيانا.

ولعل تدني الوعي بثقافة حقوق الإنسان في اليمن كامن في تدني المستوى التعليمي العام للمجتمع، وضعف – بل غياب – دور المؤسسات الإعلامية، الحكومية والخاصة ، وغياب مشاركتها الواضحة في هذا الجانب، فضلا عن ثقل الإرث التاريخي السلبي الذي كرسته حقب سابقة من عمر اليمن ساد فيها الكثير من الاضطراب، وعدم الاستقرار الذي أعاق مسيرة حياة الشعب اليمني.

● ضعف دور مؤسسات المجتمع المدني المختلفة في تحريك أنشطة حقوق الإنسان في الوسط الجماهيري والرسمي.. ولعل مرجع هذا الضعف يعود إلى تشتت جهود تلك المنظمات، والمؤسسات، وتقوقع الكثير منها بكيانات صغيرة، ومتنافرة عاجزة عن إيصال صوتها، أو تشكيل قوة ضغط نافذة. والملاحظ أن برامج بعض تلك المنظمات، والمؤسسات إما أن تكون غير واضحة، أو خاضعة لتأثير جهة أخرى «حزبية غالبا» أو أن مواردها المادية ضحلة جدا، ولا تكفل تبني مساهمة حقيقية وفاعلة.

● تلعب الأحزاب السياسية في مختلف أرجاء المعمورة دورا كبيرا في تحريك دائرة نشاط حقوق الإنسان، إلا أنها في اليمن ما زالت منطوية على أدوار خجولة جداً ،من جراء انغماسها في الجدل السياسي العقيم ، والمكايدة الحزبية التي تُفقدها الكثير من الموضوعية، والمصداقية ، وتطوقها بهالة من المبالغة التي من شأنها تضليل الجهات المعنية – خاصة في تناولها الانتهاكات، وحريات الرأي، وواقع الممارسات اليومية ، أو استنزاف جزء كبير من طاقاتها في موضع ما كان يستحق الأولوية، إلى جانب غياب المبادرات التي تتبناها الأحزاب ميدانيا، والتي من شأنها أن تصبح تكميلية، أو مساعدة بقدر ما لأي برنامج وزاري في الاتجاه ذاته.

● وقد تقف العادات والأعراف الاجتماعية السائدة في المجتمع اليمني عقبة في إنماء كثير من اتجاهات حقوق الإنسان– كما هو الحال فيما يخص حقوق وحريات المرأة اليمنية..

فما زالت الكثير من مناطق اليمن تحمل نظرة قاصرة للمرأة، بين من يستعيب تعليم الإناث، أو خروجهن للعمل الوظيفي، وبين حتى من يحرم على المرأة إبداء الرأي، أو المشاركة في الانتخابات، والأنشطة المحلية. وهذه معضلة كبيرة في طريق مشاريع إدماج المرأة– سواء الحكومية، أم غير الحكومية– وسيتطلب الأمر أعواماً أخرى من العمل المضني على مستوى نشر الوعي العام، وتطوير ثقافة المجتمع، وإدماج تلك المناطق بالمحيط المدني الحداثي حتى يتم تأهيل الواقع لدور مختلف.

● تدني الموارد الاقتصادية للدولة اليمنية له دور كبير جداً في كبح تدوير عجلة حقوق الإنسان. فالموارد الوفيرة تتيح للدولة تبني مشاريع كبيرة، وتسهيل نشر الوعي العام بثقافة حقوق الإنسان، وتقديم الدعم المناسب للمؤسسات والمنظمات غير الحكومية، فضلاً عن تأهيل الكوادر وتطوير وتأثيث المنشآت الصحية والبيئية والتربوية، والإصلاحية، والاجتماعية، وغيرها.

لكن في ظل شحة تلك الموارد لن يكون الأمر مشكلة تمويل وحسب، بل سيتفاقم الفقر وتزداد البطالة، وتتفشى الجريمة، والفساد بمختلف أنواعه.. وبالتالي تتعقد مهام مؤسسات حقوق الإنسان ولن يكون بالمقدور التعامل مع تداعياتها بـ(٥٠) موظفاً، بل بـ(٥٠) منظمة.

● هناك عامل في غاية الأهمية ، لكن قلما يتناوله المختصون، وهو السياسة الدولية.. فالهيئات والمنظمات الدولية، وكذا وزارة الخارجية الأمريكية دأبوا على إصدار تقارير مُحبطة للدول النامية، أو كما يسمونها– دول الديمقراطيات الناشئة– ومنها اليمن، ويطالبوها بأمور قد لا تبدو واقعية في بعض الأحيان، وربما تكون مستحيلة أحياناً أخرى، كالمطالبة بإلغاء قيود سفر المرأة بدون محرم، أو انتقاد تعدد الزوجات، أو يطالبون كشف ملابسات حالة اختفاء شخص من قبل عشرين عاماً.

والملاحظ أنه لم يسبق لتلك الجهات أن أصدرت تقاريراً بإيجابيات ما تحققه دولة ما على صعيد حقوق الإنسان.

ولا شك أن إلغاء خصوصيات هذه البلدان، وتجاوز ظروفها الاجتماعية ، والثقافية ، والتاريخية يجعل من القفز إلى مرحلة متقدمة وضعاً غير صحي لغرس ثقافة ومعالجات متينة لمسائل حقوق الإنسان– خاصة إذا ما قايسنا الأمر ضمن أطر الهموم الوطنية الأخرى لليمن أو سواها من الدول النامية.

● وفي سياق السياسات الدولية نفسه، يجد الباحث أن طريقة انتظام العلاقات الدولية في الوقت الحاضر بالصورة التي هي عليها تتسبب هي الأخرى بإشكاليات لمسائل حقوق الإنسان.

فانحياز الدول الكبرى، الموصوفة بـ «الراعية لحقوق الإنسان والديمقراطية»، إلى جانب إسرائيل، واستخدامها (الفيتو) ضد أي مشروع قرار عربي، علاوة على فرضها العقوبات الاقتصادية أو التلويح بها، وباستخدام القوة ضد بلدان عربية وإسلامية بعينها، فضلاً عن مسألة احتلال العراق.. وغيرها من القضايا ، كلها ولدت إحساساً مشككاً بجدوى شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان التي ترفعها تلك الدول لدى الإنسان العربي.

ولعل هذا العامل النفسي سيكون عائقاً أمام حدوث تفاعل شعبي حقيقي مع تلك الفلسفات العصرية– خاصة في ظل مستوى الوعي الاجتماعي والثقافي المتدني في اليمن، وغيرها .. لأن «الاعتقاد» هنا هو أن ثقافة حقوق الإنسان تعد نمطاً سلوكياً تمليه القناعة قبل أي شيء آخر، ويطوره التفاعل الإيجابي بين الأمم والشعوب..

● في الأعوام التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر أخذ مفهوم (القوة) يفرض نفسه بديلاً عن (الحوار)، و (القانون) بفعل السياسات التي تبناها الطرف الذي يقود عالم اليوم..

ولعل التعبئة الإعلامية الخاطئة بتأكيد شبهة الإرهاب على العرب والمسلمين خلق نفوراً شديداً في الأوساط الاجتماعية ، وإحساس بالظلم لا يمكن تجاهله عند تناول مسائل حقوق الإنسان،ومحاولة إقناع شعوب البلدان النامية بتلك المفاهيم ، والاستدلال بتجارب الآخر (القدوة).

وهناك نسبة كبيرة من الناس تقف مترددة _وأحياناً معارضة بشدة _للمشاريع الوطنية باتجاه حقوق الإنسان والديمقراطية لمجرد علمها أن الولايات المتحدة لم توقع قانون المحكمة الجنائية الدولية ، أو القانون الخاص بعمالة الأطفال.. أو لمجرد القول أن اسرائيل الطرف العنصري في المنطقة تدعمها الولايات المتحدة، أو بريطانيا ، ممن يقود الحملة الدولية لمكافحة الإرهاب.

وغالباً ما تسعى شعوب البلدان النامية التي هي بمثل وضع اليمن الاجتماعي والثقافي إلى تأويل كل شيء سياسياً، وإعادة وضعه في قالب (المخططات الإمبريالية)، والتعبئة المعادية للإسلام، وتجد على أرض الواقع الشيء الكثير الذي يدعم رؤاها ، ويوثق شكوكها .. الأمر الذي يمكن اعتبار سلوك الأنظمة السياسية العالمية واحداً من تحديات إعاقة الحراك الديمقراطي القائم في العديد من الدول النامية.

إن الظروف السابقة بمجموعها تشكل تحديات صعبة أمام خطط وبرامج وزارة حقوق الإنسان اليمنية ، الأمر الذي يجعل حصر مسئوليات المشروع اليمني في بناء دور فاعل لحقوق الإنسان بما تبذله الأخت أمة العليم السوسوه وحسب أمراً خاطئاً تماماً، وينبغي على الجميع إعادة النظر فيه، والتعامل معه انطلاقاً من مفاهيم (الهدف الوطني) ، الذي لا يتحقق إلا بتضحيات الجميع ، وليس البعض.

ربما نجحت الأخت الوزيرة في تحويل أيامنا اليمنية إلى فروض يومية من الأنشطة والفعاليات الخاصة بحقوق الإنسان– رغم أن قوام وزارتها لا يتعدى الـ٥٠ موظفاً ، لكن الحقيقة التي يجب أن نواجه بها أنفسنا هي: أنها نجحت بمفردها بينما نحن بجمعنا أخفقنا – كإعلاميين ومثقفين مدركين أهمية حقوق الإنسان في حياة الشعوب– فليس بيننا من استثمر جذوة اتقاد هذه الاخت الرائعة لقدح ثورة التحول الشعبي إلى لغة وثقافة حقوق الإنسان ، في بلد طالما ظل الغير يدعوه : «مهد الحضارة الإنسانية» .

يا للهول .. يا ..!!

بقلم : احمد محمد الحربي

■ يا للهول .. كلمة كان يرددها عميد المسرح العربي يوسف وهبي .. تعبيرا عن حدث مخيف قد يقع أو فاجعة قد تحل أو خطر داهم آت يمس فردا أو عائلة أو جماعة .. ويا للهول صرخة للانتباه لما هو قادم .. لمواجهته تخفيفا لوطأته أو إحباطا لفعله وتأثيراته .

والأمة العربية في تاريخها الحديث ، وفي أوج المعارك العسكرية للحرب العالمية الثانية ، المنتهية عام ١٩٤٥م .. ومع وجود قوات أجنبية في أراضيها بأي صفة من الصفات .. احتلال .. انتداب .. معاهدة .. الخ تنامى لديها احساس قوي بأهمية وجودها وتأثيرها في التاريخ الانساني وأحداثه ، ولعبت الثقافة القومية دورا متعاظما في تجسيد هذا الوجود وأهميته ، وأهمية الصلات ، والروابط والمصالح المشتركة لأبناء الامة .. لغويا وتاريخياً وجغرافياً .. بالاضافة إلى أهمية شرعية هذا الوجود المستمدة من ضرورات الحاضر .. ومتطلبات المستقبل، وقد اقتضى ذلك من الأمة البحث عن جامع يجمعها ، وتنظيم يوفر لها تقوية الروابط والصلات في ما بين بلدانها وشعوبها ، من اجل تحقيق مصلحة الامة وأبنائها .. ولم تجد في بحثها ذاك سبيلا يجمعها ويوحد إرادتها أكثر من إنشاء جامعة الدول العربية . ولانها لم تستطع تجاوز حدود هذا الانشاء .. انهالت المصائب عليها وجودا ونظاما ، وهوية بدءا بصدور قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧م والى اليوم .. يا للهول .. وفي أول مواجهة لتأكيد أهمية وجود الامة .. بإرادة موحدة .. مع العدو الصهيوني .. وقعت نكبة عام ١٩٤٨م وعلى ثقل وطأة النكبة .. لم يحدث تأكل للامة .. أو تفكك لروابطها .. وإنما حدث تصاعد غير مسبوق في تاريخها لأيديولوجية القومية العربية التي اعتبرت القضية الفلسطينية قضية محورية في النظام العربي .. والصراع العربي مع إسرائيل هو صراع وجود .. يكون العرب أولا يكونون .. ومن هذا المنطلق الذي تنامى مع المد القومي العربي استحالت عملية التوافق بين الصهيونية والقومية العربية..

وفي سياق هذه الاستحالة لم تشتد سخونة المواجهة العربية مع اسرائيل وحسب ، بل ووجدت الحركة القومية العربية أنها في مواجهة عنيفة مع ما سمي بنظام الشرق الأوسط .. هذا النظام الذي جاء ولادة امريكية بمباركة بريطانية وفرنسية .. يفرض على الانظمة العربية ان تتحالف مع ايران وتركيا وباكستان ، واسرائيل والدول الغربية .. بدلا من السعي نحو نظام عربي يجسد الوحدة الجغرافية والبشرية والامنية للأمة العربية .. وكان ذلك في ما يتصل بالحركة القومية العربية مستحيلا .. وبالنسبة للامبراطورية الجديدة ، القادمة من خلف المحيطات – امريكا – اعلان حرب عليها – على القومية العربية .. في الوقت الذي ارادها عبد الناصر أن تكون حركة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تخدم أوسع الجماهير العربية .. وسعيا للمشاركة السياسية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وكفاحا دؤوبا ضد التبعية ومن أجل الاستقلال القومي والاصالة الحضارية والثقافية .. ويا للهول .

ضربت التطلعات القومية للتنمية برفض البنك الدولي بقرض تمويل مشروع السد العالي .. وحطمت نواة الوحدة العربية بانفصال سوريا عام ١٩٦١م وحوصرت النزعات الوحدوية الأخرى .. بل وقتلت قبل الولادة .. ووجهت أعنف الضربات وأشدها قسوة للنظام العربي القومي في حرب ١٩٦٧م فكانت هزيمة حرب ٥حزيران ١٩٦٧م ليست الطامة الكبرى للمشروع القومي العربي وحسب .. بل والشرخ الاعظم في شرعية معظم النظم التقدمية .. ومع ذلك ظلت بقايا الايديولوجية الثورية والقومية واللغة السياسية المصاحبة لها تمد مشعل الامة بزخات لا حدود لها .. من زيت المقاومة ووقودها وكان ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧م بداية لنهوض الامة من غفوتها وركونها .. وقبلت مصر عبدالناصر بقرار مجلس الامن رقم (٢٤٢) كأساس لتسوية النزاع العربي الاسرائيلي تلتزم اسرائيل بمقتضاه بالانسحاب الكامل من الأراضي التي احتلت بقوة السلاح والعودة الى حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧م مقابل انها حال الحرب من قبل الدول العربية المعنية مصر / سوريا / الاردن .. ولم يكن القرار إياه يتضمن مفاوضات مباشرة .. ومعاهدات عربية اسرائيلية ولا شعارات ولا علاقات من أي نوع بين الدول العربية او اسرائيل .. ومع قبول مصر عبدالناصر بما لها من مكانة وقيمة بقرار مجلس الامن ٢٤٢ قال عبدالخالق حسونه حينها كأمين عام لجامعة الدول العربية كلمته .. «بصفتي امينا عاما لجامعة الدول العربية أؤكد ان الاساس الوحيد لتسوية عربية اسرائيلية هو فقط قرار تقسيم فلسطين الصادر من الامم المتحدة عام ١٩٤٧م ».

هذا القرار الذي تحدث عنه الاستاذ محمد حسنين هيكل في قناة الجزيرة – الحلقة المخصصة لفلسطين – ان عبدالناصر في عام ١٩٥٥م قبل به عندما حاولت اسرائيل ان تكون عضوا مشاركا في مؤتمر باندونج لدول الحياد وعدم الانحياز .. وان عبدالناصر حينها طرح اشكاليات حضور اسرائيل للمؤتمر بأنها لم تقبل بقرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين .. وان نهرو الزعيم الهندي وأحد اقطاب مؤتمر عدم الانحياز قام باتصالات مع اسرائيل لمعرفة موقفها من قرار الامم المتحدة والقبول به من عدمه .. وان اسرائيل رفضت الاعتراف بقرار تقسيم فلسطين الصادر عن الامم المتحدة عام ١٩٤٧م والذي حينها رفضته الامة العربية ، وتوجهت للحرب عام ١٩٤٨م وحصدت النكبة .. ومعنى هذا عمليا وقيميا واخلاقيا .. وأمنيا واستراتيجيا ، ان موقف القومية العربية تجاه الحركة الصهيونية المعبر عنه بأنه موقف وجود .. كان وظل موقفا صحيحا، فقرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين الذي رفضته الامة العربية عام ١٩٤٧م وقبلت به عام ١٩٥٥م ورفضت الاعتراف به دولة اسرائيل اكد أن النزاع العربي مع الصهيونية نزاع وجود .. وليس حدود .. وما العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م على مصر على إثر تأميم عبدالناصر لقناة السويس .. وما قامت به بريطانيا وفرنسا واسرائيل إلا تأكيد لمطامع الصهيونية المتجسدة بحرب حزيران ١٩٦٧م التي أكملت فيها الصهيونية السيطرة على كامل التراب الفلسطيني وزادت أراضي عربية اخرى في مصر وسوريا ولبنان فوق ما احتلته من أرض فلسطين وزيادة الطموح الاسرائيلي نحو دول عربية اخرى .

ولما تبقى من الايديولوجية الثورية والاحساس بعدم التفريط بوجود الامة وحركتها القومية .. واللاءات العربية الثلاث في قمة الخرطوم .. لا صلح لا سلام لا اعتراف بإسرائيل .. واستعداد الأمة لوضع شعار (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) .. موضع التنفيذ ... لم تستطع اسرائيل ان تضع أطماع الصهيونية موضع التطبيق .. شروطا وإملاء واستيطانا.

وجاءت حرب اكتوبر ١٩٧٣م التي حطمت التفوق العسكري الاسرائيلي على الأمة العربية .. وأكدت اهمية وجود الامة ووحدة إرادتها .. وانبثق عن نصر اكتوبر ١٩٧٣م العسكري على اسرائيل أبعاد سياسية واستراتيجية هامة .. يميل ميزان ثقلها لصالح القومية العربية .. والقضية الفلسطينية .. ويا لهول ما حدث بعد نصر اكتوبر، تحولت حرب اكتوبر ١٩٧٣م من حرب تحرير للاراضي المحتلة – تطبيقا لشعار (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) .. الى حرب تحريك للقضية .. وتغير موقف القومية العربية مع الحركة الصهيونية من قضية وجود .. إلى قضية حدود .. وانحسر العمل الدؤوب لتأكيد الاستقلال الاقتصادي والسياسي وتعميق أسس التحرر والوحدة .. ليحل محله السباق المتسارع نحو التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية للغرب واستبدال عمليات التنمية والعدالة الاجتماعية بسياسات وآليات السوق وتحرير الأرض ، أصبح إزالة آثار العدوان .. والسلام المشرف والعادل مع اسرائيل .. انتصب شعار (الارض مقابل السلام) وعدم الاعتراف بإسرائيل الى هرولة نحو التطبيع مع اسرائيل .. وترسيخ دعائم الوحدة وتقوية دعائم الانظمة القطرية .. وتقوية الروابط والمصالح المشتركة للدول العربية، وما حدث قد حدث ولا تزال المكابرة تطل برأسها .. بأن ما حدث لن يمر رغم الاستيطان الواسع .. والقتل المعلن عنه بافتخار، ولم تعد الصهيونية مساوية للعنصرية .. رغم اقرار الكثير من إنها أشد قسوة في الممارسات والاجراءات الاسرائيلية ، مما كان في نظام الفصل العنصري بجنوب افريقيا .. وما حدث ومهد لحدوثه كرس حال الأمة البائس .. والتفكك والتآكل الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الامة .. يا .. للهول..!..

فضل النقيب

خارج الحساب..!!

■ ،، تحدثت كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الامريكية عما أسمته «ربيع الديمقراطية» في العالم العربي، مبشرة بما يشبه الانهيارات التي حدثت في أوروبا الشرقية عقب سقوط الاتحاد السوفيتي ، ومشيرة في الوقت نفسه إلى أن الديمقراطية لا تُفرض ، ولكن ينبغي بموازاة ذلك عدم فرض الدكتاتورية أو التبشير بها، وأضافت أن الرئيس بوش لديه القدرة بالقول والفعل على دفع رياح التغيير وأن الولايات المتحدة تتوقع الكثير من العمل الإصلاحي وخاصة من قبل أصدقائها الذين تشجعهم في هذا الاتجاه.

ويبدو من كلام الوزيرة المخضرمة أن أمريكا على وشك الخروج من عباءة ١١ سبتمبر التي كانت لا ترى عبرها سوى اللونين الأبيض والأسود ، ومن ليس معنا فهو ضدنا، ولقد كانت تلك التجليات نتيجة طفولة حكم بلغ الآن سن النضج ونتيجة صدمة ماس كهربائي عالي الفولتية نجم عن أحداث ١١ سبتمبر ، فالتقت الطفولة بالصدمة في ولادة مشوشة على أيدي المحافظين الذين لا يرون سوى الشر في العالم، فكن ما كان مما سيُروى في قادم الزمان ، من سوء ممارسة الهيلمان ، وفرض أحكام «قراقوش» على مختلف البلدان.

الآن يفكرون ، وكانوا من قبل يقدرون ، وبين أيديهم الآن لقى ثمينة يميزون بها بين حقائق الواقع ومعطياته وغش المحتالين الذين كانوا يبيعون لهم الأسماك قبل اصطيادها من البحر ، وبما أن امريكا هي الدولة الأعظم في العالم مالا ورجالا وسلاحا واستراتيجيات فإن من مصلحة الحضارة ومستقبلها تشجيع الرؤى الجديدة العاقلة والتناغم معها في عمل جدي مخلص يخدم الجميع ويستجيب للمصالح المتوازنة، ولاينبغي نسيان أن واشنطن تصرف مئات المليارات على سياساتها وهي تتوقع ثمارا يانعة نتيجة ذلك، كما أنها الآن قد فتحت فروعاً عاملة لبنوك الدم الامريكي بدءا من افغانستان والعراق، وبالتالي يمكن الاستنتاج أنها جادة وليست هازلة، وأنها قد تمكنت من تحويل «الفوضى الخلاّقة» إلى أداة نظرية على تماس مع حقوق الانسان ومساواة المرأة بالرجل، وتأكيد وضع الأقليات ، وتوصلت إلى ذلك بالديمقراطية ومخرجاتها الجانبية التي يؤمن بها الغرب بأسره والعديد من دول العالم بما في ذلك الديمقراطية الأكبر في الهند، وقد حجز للعرب مكان في الذيل .

كثيرون أخذوا على امريكا اندفاعها الهائج عقب ١١ سبتمبر كثور غاضب في محل خزف، والآن يمكن القول أنها تنقص عن براطيمها وظاهر جلدها وعالي قرنيها ما علق بها من عواقل الخزف المحطم، وعلينا أن نساعد جميعا في تنظيفها لكي يتنظف العالم.

على أن واقعية امريكا أو برجماتيتها وفقاً للتعبير الامريكي لا ينبغي أن يؤخذ على أنه إقرار بالجمود في الكثير من الأنظمة المصابة بالجرب الحضاري والتي يمكن أن تعدي كما أعدت في السابق، فمثل هذه الديناصورات التي توشك على الإنقراض ينبغي أن تكون خارج الحساب حتى يوم الحساب..

غدير الحسين

عودة ابنة سام

□ ،، قبل عدة سنوات وإثر عودتي إلى اليمن بعد غيبة طويلة، وقفت على جسر السائلة ورأيت منظراً بقي محفوراً في ذاكرتي حتى اليوم، كانت ليلة باردة، تجمعت الغيوم في سماء غاب قمرها واكفهر الجو منذراً بمطر غزير، ليلتها بدت صنعاء القديمة كمدينة مسحورة مرتسمة في الضباب، شاحبة كالأميرة النائمة رهيبة لكنها جميلة وترقد في سبات عميق.

ظلت تلك الصورة تؤرقني، صورة صنعاء القديمة متدثرة برداء ضبابي شفاف يتقطر ندى ، والحزن والإرهاق يخطان معالمها ويحولان كل زقاق فيها إلى زقاق تنهدات والحال أيام السديم أشبه برحلة إلى الظلمات.

منذ مدة وجيزة وفي صباح أحد أيام الصيف المشرقة وقفت في ساحة باب اليمن، كانت البوابة مشرعة على مصراعيها وبدا منظر المدينة القديمة أمامي خلاباً مكللاً بالمجد، شاهدت المئذنة السامقة للجامع الكبير شامخة تحكي تاريخاً عامراً، وظهرت المدينة في أبهى صورها تنتظر قدوم زائريها.

عندما تطأ قدماك أرض تلك المدينة الفاتنة، تتناهى إليك أصوات غريبة لم تسمعها في أي مكان، ومهما يكن زائرها قد قرأ وسمع عن تأثيرها البصري فإنها تأخذه دائماً على حين غرة ، وما زالت حتى اليوم أقع أسيرة سحرها الأخاذ، لا بفعل الهندسة المتميزة للأبنية والأزقة الرائعة بل لاقتران الهندسة بالفضاء والنور واللون، وحين يقع نظرك على الطريق الضيقة فيها يتكون لديك أولاً انطباع سمعي فتزول الأحاسيس العادية وتحل مكانها أخرى جديدة، وتتناهي إليك أصوات ووقع أقدام وتغريد عصافير وسعال من نافذة مجاورة، وقد تمضي ساعات وأنت أسير روعة المباني القديمة التي شيدت مجموعات منها منحرفة لا تخدم غاية عملية مما يزيدها سحراً.

تدل الأبنية على تضلع في فن العمارة ومعرفة بالرسم المنظوري وإحساس فاتن بالحركة والتغير، تكللها تلك النقوش والزخارف الجصية التي حفرت على الجص الرطب بتشكيلاتها الهندسية الرائعة.

في ضوء الفجر الرمادي تنتفض المدينة بالحياة وما إن يبدأ الضوء والدفء بالتسلل بين أزقة المدينة حتى تدب الحياة في شوارعها وأسواقها.

ولأسواق صنعاء صفة خاصة فقد صممت المحلات فيها بما يتناسب وحجم شوارعها الضيقة.

فتراها صغيرة متراصة بجوار بعضها وقد علقت في واجهاتها البضائع العديدة وتكتست في الداخل تشكيلة متنوعة من التحف والهدايا.

كان حرفيون يطرقون الواحاً من الذهب والفضة محوليتها إلى زخارف عربية بسماكة الورق، فيما جيرانهم يخيطون أحزمة الجنابي من خيوط الحرير المصبوغة بماء الذهب والفضة.

وعلى مقربة منهم حلاقون أقاموا حوانيت في الزوايا. وسط الدكاكين هناك حيث تباع الأواني النحاسية والعمامات والأحزمة والمسابح والصنادل، طالعتني صورة عالم مختلف، وأذهلني ما وجدت في أحد محلات بيع التحف القديمة.

صناديق من خشب الجوز صنعت في القرن السابع عشر ولوحات وتماثيل وشمعدانات كانت تزين بعض القصور والمنازل العريقة أيقضت في صورة أرض عالم أحلام بدت لي بعيدة جداً، عندما وصلت إلى سوق الملح أسر حواسي مزيج غريب من المناظر والأصوات والروائح، القرفة وكيش القرنفل وحب الهال وجوز الطيب، وقد ازدانت مداخل الدكاكين بأجولة مملوءة بالزبيب والتمر والحبوب.. وغيرها، كما انتشرت المقاهي الصغيرة تبيع اللحم المقلي والمشوي والفطائر المحلاة، فيما راح باعة متجولون يروجون ليضائعهم.

انقضى النهار سريعاً وأنا اتسكع في أرجاء المدينة والواقع أن الوقت الذي تمضيه في صنعاء القديمة لا يسمح لك بالتمتع على نحو تام بالكنوز الكثيرة والمعالم السياحية التي تحفل بها المدينة.

أسرعت الخطى قليلاً حتى وصلت إلى جسر السائلة.. بدأت الشمس بالمغيب.. تفجرت الألوان الذهبية والحمراء والارجوانية وانعكست على أبنية المدينة في لوحة خلابة بالغة الجمال والروعة.

حينها لم اتمالك نفسي، صرخت مخاطبة أبيها وبانيها «سام بن نوح*» أن لك أن ترقد بسلام فها هي ابنتك قد عادت متألقة شامخة معطاءة كما تمنيتها دائماً.

إلى جواري وفي إحدى جنبات السائلة حيث كانت تقام أمسية ثقافية، الفيت المكان مكتظاً وكان بجانبي مواطنون يتحدثون بحماسة عن اختيار صنعاء عاصمة للسياحة العربية للعالم الحالي (٢٠٠٥م) صفقت بصمت، فأنا مثلهم ومثل الملايين غيرهم في كافة أنحاء العالم متيمة بهذه المدينة القديمة التي تؤوي هذا المقدار من السحر والإرث الثقافي.

"صنعاء مدينة تسكنك وهي دائماً مكان تصعب مغادرته"

* أشرف مساجد صنعاء وأقدمها أول من أسسه "وبر بن يحلس الأنصاري الصحابي في زمن الرسول صلى الله عليه واله وسلم سنة ست هجرية كما حكاه الرازي في تاريخ صنعاء، وقد زاد فيه أيوب بن يحيى الثقفي في زمن الوليد بن عبدالملك الأموي وكان عامله على اليمن، وخربه السيل في سنة مائتين وخمس وستين للهجرة فجدد عمارته الأمير أسعد بن أبي يعفر الحوالي على ما هو عليه اليوم ما عدا الجناح الشرقي فمن عمارة السيدة أروى بنت أحمد الصليحي في سنة خمسمائة وخمس وعشرين للهجرة.

* صنعاء أقدم مدن الأرض ولا تزال إلى يوم الناس هذا تسمى مدينة "سام بن نوح" عليه السلام وهو الذي أسسها منذ أكثر من ألفي سنة*.

وقد وصفها الحاج "أحمد بن عيسى الرداعي" في أرجوزة الحج البديعة:

صنعـاء ذات الدور والاطام والقـدم الأقـدم ذي القـدام
والعـز عن ذي السطوة الغشـام أسست بعلم لابن نوح سام
بعلم رب ملك عـــلام إذ رادها ســـام بلا توهام
ورادها من قـبل الفي عـام مـابين سـفح نقم النقـام
وبين عـيبان المعين السامي فـاسـسـهـا في سالف الأيام

* صفة جزيرة العرب/ للحسن الهمداني
* مجموعة بلدان اليمن وقبائلها/ القاضي محمد اليماني

Kadeer_Alhoseen@yahoo.com